

الكونيات والعلوم الحديثة

في شعر الرصافي

بمناسبة الذكرى السابعة على وفاته

للاستاذ خالص عزمي

الرصافي - الذي نحيى ذكره - ثورة من ثورات الفكر المجدد، وداعية من دعاة النهضة العلمية الحديثة، فضلا عن كونه أميراً من أمراء الشعر، أطلق لفكره العنان في مواضع التفكير الصائب، ذلك التفكير الذي تنطلق منه حيناً تأملات الذهن الباحثة عن شتى العلوم والفنون

كان الرصافي - رحمه الله - يبيت بصره (في كثير من

مخائفا، ثم عرضت عليك خلاف لك، أن تكون أسرع إلى موافقتي منك إلى الخلاف علي، حين ترى فيما أقول صوابا يرضيك. أليس هذا جائزا، ويمكننا أيضا؟ فإذا رأيتني بلفت في سياق مقالتي في « الملون » إلى ذكر دول الإسلام، فمتدند فقل، فأنا أقبل منك ما تقول. واعلم أنني لا آنف أن أسير إلى الحق إذا هرفته. ولقد عشت على هذه الأرض زمانا طويلا، واعتقدت منذ عقلت آراء كثيرة، ثم تبين لي أن الحق في خلافتها، فرجعت عنها جملة، ولم أبال بما كنت أرى. ولعلك أنت خاصة تعلم من ذلك ما لا يعلمه فيرك

وأنا أحب أن ترجع إلى ما كتبت في مجلة « الملون » ولا تأخذ كلام أهل اللجاجه، فإنهم أوهموك، فيما أظن، أنني قلت شيئا، والحقيقة أنني لم أقل بعد فيما تناولته أنت شيئا، وأنا أعيدك أن تتورط في هذا الشر الذي يجاهد جميعا في دفع الناس عنه، وهو أخذ الأموال بلا بيعة، وبلا حجة، وبلا برهان. ولك مني تحية كنت أحب أن تباينك، على غير هذه الراحة السكره على ارتكاب طريق دنسته الأقدام، والسلام

محمد محمد شاكر

الأحيان) جوالا في السماء، في ذلك الكون الشاسع، في ضياء الشمس نهارا، وإلى كواكب السماء، إلى البدر المنير ليلا، فيصور بريشة الإحساس للرصف، بريشة الفنان الملمم، صورا رفيعة المنزى، تقرب من الحقائق شيئا كثيرا، ممتدة، على فكر ثابت، وتطلع متزن، ثم على إجهاد في البحث، والتنبع المستمر لآراء كبار الكتاب والفكرين، فيصل بكل ذلك إلى كبد الحقيقة، ولا ينتهي منها شيئا حتى يبدأ بسلسلة من الأفكار الجديدة، شأن كل شاعر حر ومفكر مبدع

يجلس الرصافي ليلته بأفكار مجنحة، ونفس هادئة، وفكر مستقر، يرسل بصره في تلك الصفحة التي تضيئها أنوار النجوم الزاهر، والمجموعات النورية، فتحوّلها قطعة كبيرة لا تدركها الأبصار، شاعرية التكوين والتشكيل، لا يمكن وصفها على حقيقتها إلا من شاعر ملهم، كالرصافي ... قلنا يجلس ليلته، فلا يكاد يستقر بصره حيناً حتى تنور شاعريته فيقول ويستمر في القول حتى ينتهي به الطاف إلى تكوين قصيدة محبوبه الموائى بحمار لتكوينها الفكر، كما حدث في قصيدته الرائعة (تجاه للانهاية) حيث يقول :-

في فضاء لو سافر البرق فيه ألف قرن لا أتى مستقره
ولو الشمس وضعت ألف ضعف لم تكن في أثيره فير ذره
ولو الفكر فاص فيه سفن لم يكن بالقائد الدهر قمره
سعة تحب الهجرة فيها حلقة أقيت بصحراء قفره
إن تكن هذه الهجرة نهرا مستقيضا فشمسنا منه قطره
إن تسائل هنا فنحن هباء ذر من صنعة القوى بمذره
ثم إنك (يا قارئ الكريم) - لو أقيت نظرة على قصيدته المشهورة - من أين وإلى أين - لرأيت ينفذ في مواضع كثيرة قول العلماء المشهور ونظريتهم المعروفة التي تلخص في « أن الضياء حاصل من اهتزاز الأثير فيقول :-

من أين من أين يا ابداني ثم إلى أين يا انتهائي
أمن فناء إلى وجود ومن وجود إلى فناء
أمن وجود له اختفاء إلى وجود بلا اختفاء

لأى أمر ذه اللهيالى تأنى ونغضى على الولا
أرى ضياء يروق ميني ولست أدرى كنهه الضياء
وما اهتزاز الأثير إلا علالة نورة الجلاء
وهنا يرى (القارى) أن الشاعر الكبير قال فى البيت
الأخير ما معناه « أن العلماء فسروا ذلك التفسير المهم لأهم
لا يدركون الحقيقة بل وجدوا ذلك الحل نخلصا فى حلقة مفرقة
لا يتصلون إلى نهايتها بتانا »

ثم يصف تزامم الذرات فى الجسم وهو ما يسمى (حرك
الألكترونات) . فيقول :

فإن أجزاء كل جسم متمدات بلا اتقاء
وفى دقات الجاد حرك ينهم الحس بالمطام
ويبتدل بعد ذلك فيضاطب تلك القوة الخارقة المروقة بقوة
الجذب فيقول : —

يا قوة الجذب أطلتيني من ثقلة أوجبت عنانى
ثم يتابع القول فيتجه نحو الكهرباء السماوى الذى ينبعث
من النجوم والكواكب والأقمار فيقول

وأنت يا كهرباء سر بدا وما زال فى غشاء
مجانب الكون وهى شتى فيك انطوت أبا انطواء
أضأت إن شئت كل داج انسا وأدنت كل ناء
فى هذه القصيدة لاحظ — القارى الكريم — أن

المرحوم الرصافى قال فى أهم النظريات العلمية الحديثة ، فقد قال
فى (تزامم الإلكترونات) وجزئيات الجسم ثم فى قانون الجذب
العام ، ونظرية دارون فى النشوء والارتقاء وفى الإشعاع الضوئى ،
هذه المواضيع كلها تصور لنا مدى تتبع الشاعر الكبير للنظريات
العلمية ، تنفيذها فى مواضع ومجاراتها فى مواضع أخرى

وتتلو الفكرة التى نتحدث منها فى وضوح شامل فى
قصيدته (كن يا ضياء) ومعناها (كن إلى ذلك الشئ
يا ضياء ... أو توجه إليه) وسها ينتقد أكبر العلماء وأرقام
مدارك فى علوم الفلك والطبيعة : حيث يقول

أبينى ما وراءك يادرارى فنحن نخاله بمدا شطونا

فد اتسع الفضاء لك انسا ما فهل أبعاده بك ينتهينا
وترصدك الأنام وما أتانا بلم كيائك الترددونا
(فهدشل) ما شفا مناغليلا ولا (قاليل) أنبانا اليقيننا
(كبلر) قد هدى أو كادنا أبانك بانجورم تجاذيننا
ومن كل ما تقدم يتبين للقارى الكريم أن الرصافى عقلية
استوهبت كثيرا من العلوم ، وأدرت من الحقائق
والمحوسات ما جعلها ترتفع شيئا كبيرا من المستوى الفكرى
السطحى لأكثر الشعراء

ونحن بهذه الكلمة البسيطة لا يمكننا تبيان ما زبده فى
بحال هذا الموضوع الثمب ، إذ لو أردنا تحقيق ذلك وإدراكه
لاحتجنا إلى كثير من الصفحات ، وكثير من الماعات بل
الأيام لكى نسجل بها أو نشرح ما قاله شاعرنا الكبير فى هذا
الصدر

ولكن لا بأس من أن نهمى حديثنا هذا بما قاله العلامة
الكبير (الترن) فى مقدمته للطبعة الثانية من ديوان (الرصافى)
حيث كتب يقول فى هذا الباب — باب الكونيات — ما يلى
« ... وقصائده (تجاه اللانهاية) و (من أين إلى أين) و (نحن
على منطاد) و (الأرض) و (الكن يا ضياء) و (مترك
الحياة) وغيرها لو حولت إلى نثر لكنت من خير المقالات التى
وصفت بها الكائنات وصفا منطبقا على آخر نظريات العلم الحديث ..
ففيها بيان أو شرح لوحدة المادة ، والجاذبية ، والأثير والكهربائية
وأشعة (رنجتن) وآراء دارون فى النشوء والارتقاء ، ومذهب
ديكارت فى التوصل إلى اليقين عن طريق الشك ، ومبادئ
الاهتراكين فى أن تكون للمامل حصة من إنتاجه »

تركوا السمي والتكسب فى الدنيا وماشوا على الرعية عالة
يا كاون اللباب من كد قوم أهوزتهم سخينة من نخاله
يتجول النسيم فيهم فتبكي أعين السمي من نيم البطاله
ليس هذا فى مذهب الاشتراكية إلا من الأمور المحاله